المشروع القوميّ العربيّ في مواجهة الصهيونيّة

الأسف الذي يجب أن لا يغلق

. عبد الله عبد الدائم* .

I ـ مدخل

عندما يُقْبل المرء على التصدّي للصراع بين القوميَّة العربيَّة والقوميَّة الصهيونيَّة، تزدحم المعاني في صَدْره، فلا يدري أيُّها يختار. ومع ذلك ففي وسعنا أن نُوجز الموقفَ بالقول إنَّ على القوميَّة العربيَّة أن تنطلق في صراعها مع القوميَّة الصهيونيَّة من حقيقة أساسيَّة هي الآتية: القوميَّة الصهيونيَّة منذ نشأتْ، وعبر مراحل تطوُّرها جميعها، قوميَّةٌ أسطوريَّة خرافيَّة، وقوميَّةٌ مصطنعة زائفة، وقوميَّةٌ عنصريَّة إثنيَّة، وقوميَّةٌ عدوانيَّة.

ومن هنا كان من العبث أن نتوقَّع من إسرائيل، ربيبةِ الصهيونيَّة، أن تتخلَّى ولو عن جانب من مطامعها العدوانيَّة المرسومة... إلاَّ إذا استطاعت القوميَّةُ العربيَّةُ أن تَمْلك من القوّة والوحدة والتأثير ما يَحْمل إسرائيلَ على إعادة النظر في منطلقات الصهيونيَّة، وما يجعلها تُدْرك من خلال المعاناة الواقعيَّة أنَّ هذه المنطلقات مستحيلة التطبيق، وأنَّها سوف تعاني جرائرَ هذه «الخطيئة الأوليَّة» إذا هي لم تتخلَّ عنها نهائيّاً.

غير أنَّ تقرّي الأحداث يَكْشف عن أنَّ سلوك إسرائيل كان ومايزال عكسَ ذلك. فكلّما عصفتْ بها الأزماتُ ازدادت خوفًا على مصيرها، وازدادت من ثمَّ عدوانًا. ولن يأتي اليومُ الذي تتخلَّى فيه عن عدوانها، وتعيدُ الحقَّ لأصحابه، إلاَّ إذا أدركتْ إدراكاً عمليّاً أنَّ العرب لن يستسلموا وإنْ غُلِبوا على أمرهم إلى حين، وأنَّ الزخم القوميّ العربيّ في تصاعُد.

ولعلَّ من البدهيّ أن نقول إنَّ الذي أوصَلَ القضيَّةَ الفلسطينيَّةَ إلى هذا المصير الذي نَشْهده، كما أوصل الأمَّةَ العربيَّةَ الى الحيرة والاضطراب، هو أنَّ الحركة القوميَّة العربيَّة لم تكن في شتّى مراحل نموّها وعملها في المستوى الذي تَسْتلزمه مواجهةُ رزءِ الصهيونيَّة وأطماعها. ومن المؤلم أن نقول إنَّ الصهيونيَّة استطاعت، بدأبها وعملها المنظَّم، أن تَقْلب خرافتها، خرافةَ الكيان الصهيونيّ، إلى حقيقة، ولاسيَّما في نظر العالم؛ وإنَّ الأمَّة العربيَّة، بسبب عجزها وقعودها وتشتُّتِ أبنائها، هبطتْ بحقيقتها إلى مستوى الخرافة. وإذا استمرأت الدولُ العربيَّة تقوقعَها القُطْريّ، وإذا عجزت القوميَّة العربيَّةُ عن إعادة صياغة أهدافها ووسائلها ـ وعلى رأسها بناءُ الإنسان العربيّ المصمِّم على النضال، والمالكِ لوسائله، والقادرِ على الارتفاع ببنية الأمَّة العربيَّة إلى مستوى العصر ـ فلن تُفْلح محاولاتُ السلام نفسُها مع إسرائيل. ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ عقليَّةَ العدوان، الراسخةَ في نفوس أبناء إسرائيل، قد فرضتْ نفسَها على عمليَّة السلام. بل تَكْشف مفاوضاتُ السلام بين الفلسطينيّين والإسرائيليّين كلّما تقدَّم الزمنُ عن عودة مطّردة إلى منطلقات اليمين الصهيونيّ المتطرّف، وعن بروزٍ جديدٍ لأكثر اتّجاهات الصهيونيَّة عدوانيَّةً منذ نشأتها ـ نعني الاتّجاهَ الذي مثَّله منذ البداية الزعيمُ الصهيونيُّ جابوتنسكي، وعاد فمثَّله مِنْ بعده ورثتُه من أمثال بيغن وشامير ونتانياهو وأخيرًا لا آخرًا شارون. بل إنَّ الجناح الإسرائيليّ الذي يدّعي أنَّه جناح السلام، وعلى رأسه شيمون بيرس فضلاً عن باراك، يزداد مع الأيام جنوحًا إلى المواقف العدوانيَّة والتصاقًا بمقولات اليمين المتطرّف. ولكي ندرك هذا كلَّه، لا بدّ من العودة إلى منطلقات الصهيونيَّة الأولى منذ نشأتها.

II ـ معالم السياسة الإسرائيليَّة من خلال منطلقاتها الصهيونيَّة

١ ـ القوميَّة الصهيونيَّة قوميَّة أسطوريَّة خرافيَّة. قامت الصهيونيَّة على جملة من الأساطير التي حاولتْ من خلالها تزويرَ التاريخ اليهوديّ، وعلى رأسها أسطورةُ «الأرض الموعودة.» وهنا نحرص على الإشارة إلى الحقيقتين اللتين كشفت عنهما أحدثُ الدراسات التاريخيَّة

* ـ مربٍّ، ومفكّر قوميّ، ووزير سابق. والبحث أعلاه نصُّ المحاضرة التي ألقاها في المركز الثقافيّ بحلب.

بهذا الشأن. الأولى تؤكّد أنّ التوراة ـ على نحوٍ ما صاغها اليهودُ بعد حوالى خمسمائة عام من نزولها على موسى ـ لا يمكن أن تُعَدَّ كتابًا ذا قيمة تاريخيّة، وأنّ ما جاء فيها لا يعدو أن يكون أساطيرَ الأوّلين. والثانية تؤكّد تهافُتَ ما ورد في التوراة المزيَّفة عن دولةٍ اسمُها إسرائيل وَضَعَها المؤرِّخون الصهاينة في مرحلة الانتقال بين العصر البرونزيّ المتأخّر والعصر الحديديّ (أيْ حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد). ويشير كيث وايتلام إلى أنّ أورشليم في القرن العاشر قبل الميلاد لم تكن أكثر من مرتفعات صغيرة، وكانت أبعدَ ما تكون عن عاصمةٍ لمَلَكيّة موحّدة شاسعة على نحوٍ ما ورد في النصوص التوراتيّة المزيَّفة. وهذا يعني «أنّ ما كان يُعتبر تقليديّاً أوجَ التطوُّر السياسيّ في المنطقة، ونَعني دولةَ داودَ وسليمانَ القوميَّة، يختفي من الوجود نهائيّاً.»[١] ويبيِّن الكاتب أيضًا كيف أدّى هذا التزييفُ إلى إقصاء تاريخ فلسطين القديمة وسكّانِها الأصليِّين، وكيف تقدِّم المعطياتُ الآثاريّةُ معلوماتٍ قيّمةً حول الوضع السكانيّ والاقتصاد والتنظيم الاجتماعيّ لدى السكّان الأصليِّين لتلك البلاد (أي الفلسطينيِّين)، بالإضافة إلى أنّ هذه المعلومات لا تَذْكر شيئًا عن كيانٍ اسمُه «إسرائيل.» ومن هنا يرى الكاتب أنّ الفلسطينيِّين اليوم قد تَناسَوا التاريخَ الفلسطينيَّ القديمَ وتركوه لإسرائيل والغرب، وأنّ من اللازم استردادَ ذلك التاريخ بعد أن تمّ إقصاؤه خلال القرنين الماضيَيْن «نتيجةً للقبضة الخانقة التي أظهرها المتخصِّصون والمؤرِّخون والآثاريُّون الكتابيُّون، والتي تتحكَّم في دراسة فلسطين والشرق الأدنى القديم.»[٢] فقد بحث الباحثون الكتابيُّون (التوراتيُّون) دائبين عن وجود إسرائيل الماديّ بين خرائب الأرض وآثارها، ولكنّ «ما عثروا عليه هو ما كانوا قد قرَّروا مسبقًا أن يعثروا عليه، نعني إسرائيلَ شبيهةً بالدول القوميَّة اليوم.»[٣] وهكذا تمّ تقديمُ إسرائيل إلى العالم بوصفها دولةً قوميَّةً بدينةً تَبْحث عن وطن تعبِّر فيه عن وعيها القوميّ التليد والجديد.[٤]

٢ ـ القوميَّة الصهيونيَّة قوميَّة قسريَّة مصطنعة زائفة. لعلّ أبرز ما تتَّصف به القوميَّة الصهيونيَّةُ أنّها وُلِدتْ ولادةً قيصريَّة، بل أكْرهت الشعبَ اليهوديَّ نفسَه على غيرِ ما كانت تريده أكثريَّتُه الساحقة. وإنّ المرء ليعجب ما الذي دعا الفئةَ الصهيونيَّةَ القليلةَ العدد إلى ركوب هذا المركب الذي لم يكن يهودُ الشتات في حاجة إليه، ولا يَحْمل لهم سوى الآلام والصراعات والحروب.

أ ـ اليهوديَّة والصهيونيَّة. ولا شكّ أنّ أول تساؤل يَخْطر على البال في هذا السياق هو عن دور الدين اليهوديّ في تيسير هذه المهمّة. وحسبنا أن نقول إنّ رجال الدين اليهوديّ (باستثناء قلّة نادرة) قد أنْكروا الحركةَ الصهيونيَّةَ إنكارًا حاسمًا يوم ظهرتْ على يد هرتزل عام ١٨٩٦ ـ ١٨٩٧؛ واعتبروا الدعوةَ إلى عودة اليهود إلى أرض الميعاد، بإرادة بشريَّة لا إلهيَّة، كفرًا وهرطقة؛ ورأوا في الصهيونيَّة ثورةً ضدّ الإله ونفيًا لليهوديَّة واستعجالاً «مسيحانيّاً» أو مشيحانيّاً قبل أن تَظْهر الإشاراتُ الإلهيَّةُ الدالّةُ على ذلك.[٥] ومن هنا الموقفُ السلبيُّ الحاسمُ الذي واجه به اليهودُ وحاخاماتُهم في ألمانيا رغبةَ هرتزل في أن يَعْقد المؤتمرَ الصهيونيَّ الأولَ في مدينة ميونيخ الألمانيَّة، فاضطُرَّ إلى عقده في مدينة بازل في سويسرا.

يضاف إلى هذا كلِّه أنّ الصهيونيَّة كانت حركةً علمانيَّةً لا تتَّخذ من الدين اليهوديّ

١ ـ ٢ ـ ٣ ـ كيث وايتلام، **تلفيق إسرائيل التوراتيَّة: طمس التاريخ الفلسطينيّ**، ترجمة ممدوح عدوان (دمشق: دار قدمس)، ص ١٧، ٣٠٠، ٣٠٣.

٤ ـ تُراجع كتابات توماس طومسون الذي طُرد من الجامعة الأميركيَّة التي يَعْمل فيها بسبب كتابه **التاريخ المبكّر للشعب الإسرائيليّ**.

٥ ـ من أجل مزيد من التفصيل، أنظر كتابنا: **إسرائيل وهويّتها الممزّقة** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيَّة، ١٩٩٦).

مقوِّمًا لها ومنطلقًا، وأنَّ زعماءها البارزين ـ من أمثال هرتزل وجابوتنسكي ووايزمان وبن غوريون ـ كانوا مُلْحدين ولم يُخْفوا إلحادَهم. فممّا نقرأه في مذكرات هرتزل: «لقد قلتُ للحاخام الأكبر في لندن، كما قلتُ للحاخام الأكبر في باريس، إنّي لا أَخْضع في مشروعي الصهيونيّ لأيّ دافع دينيّ.»[1] وممّا يقوله في مكان آخر من تلك المذكّرات: «لقد سألني آشر مايرز: ما هي علاقتك بالتوراة؟ فأجبته: إنّني مفكّر حرّ.» على أنَّه ناقَضَ نفسَه بعد ذلك وتبنَّى مواقفَ مزدوجةً وملتبسةً، لأسباب عمليّة. هكذا نجده في خطابه الذي افتَتَح به المؤتمرَ الصهيونيَّ الأوّل في بازل عام ١٨٩٧ يقول بصريح العبارة: «إنَّ الصهيونيَّة تعني العودةَ إلى الديانة اليهوديّة حتى قبل العودة إلى أرض اليهود.» ومثله وأكثر منه فعله بن غوريون، مؤسِّسُ دولة إسرائيل. والقول الفصل في هذا هو أنَّ الدين أصبح على يد الحركة الصهيونيَّة مجرَّدَ أداةٍ للحركة القوميَّة، تتلاعب بها وفقًا للظروف والأحداث. ولا شكّ أنَّ هذه اللُّغة المزدوجة قد ساعدتْ تدريجيّاً على تكاثر أعداد المؤيِّدين للصهيونيَّة لدى المتديِّنين من اليهود.

غير أنَّ علينا أن نضيف إلى هذا العامل الذي ساعد على المزج بين الصهيونيَّة والديانة اليهوديَّة عاملاً آخر، وهو ظهور محاولات فكريَّة حاولتْ أن تفلسف الصلةَ بينهما. وحسبُنا الإشارةُ إلى المحاولة التي قام بها أبراهام إسحق كُوك (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥). ونحن إذ نتوقَّف قليلاً عند أفكار هذا الحاخام اليهوديّ الشهير فإنَّما نفعل ذلك لهدفيْن متكامليْن: الأوَّل أن نبيِّن كيف أدّت أفكارُه وأفكارُ أمثاله من رجال الدين إلى تخفيف العداء الذي نَشَبَ في البداية بين دعاة الصهيونيَّة وممثلي المذاهب اليهوديَّة الكبرى؛ والثاني أن نبيِّن التزييفَ الذي مارسته الصهيونيَّةُ على اليهود أنفسهم.

ب ـ كُوك وتزييف العلاقة بين الصهيونيَّة واليهوديَّة. لقد قام كوك، الذي أصبح أولَ حاخامٍ أشكنازيّ في فلسطين، بتقديم تفسير جديد جذريّ وشامل للتاريخ اليهوديّ من أجل تحويل الأمل المسيحانيّ السلبيّ إلى أداة فعّالة لتحقيق التعاون بين هذه النزعة الدينيَّة من جهة، والحركة السياسيَّة المناضلة والعلمانيَّة التي تمثِّلها الصهيونيَّةُ من جهة ثانية. وكان منطلقَه في ذلك هو التوحيدُ بين الديانة اليهوديَّة وأرضِ إسرائيل، وتأكيدُه أنَّ أرض إسرائيل جزءٌ جوهريّ من كيان اليهود القوميّ ومن رسالتهم الروحيَّة إلى العالم. على أنَّ أهمّ ما جاء به هو هجمته الحاسمة على حَمَلة التقاليد الدينيَّة اليهوديَّة الذين استمرأوا الحياةَ في المنفى؛ ذلك أنَّ شعبَ إسرائيل والتوراةَ وأرضَ إسرائيل كلٌّ لا يتجزَّأ، فيما يرى، وقَطْعُ الصلَة بين اليهوديَّة وإسرائيل يعني قطعَ جذور اليهوديَّة. بل إنَّه يَعْجب ممن يتَّهمون ويَحْتقرون اليهودَ الذين يُضحُّون بحياتهم من أجل العيش في فلسطين لا لشيء إلاَّ لأنَّهم لا يمارسون الطقوسَ الدينيَّة.

وههنا يلجأ كوك إلى حيلة من الحيل الدينيَّة التي يعجّ بها تاريخُ اليهوديَّة، وقوامُها قولُه إنَّ الدافع الحقيقيّ لأفعال الإنسان قد يَخْفى عن فاعلها. وهذا الأمر ينطبق في نظره على الروّاد الأوائل للصهيونيَّة: فقد يظنُّون أنَّهم مدفوعون بدوافع سياسيَّة علمانيَّة، في حين أنَّهم في حقيقة الأمر يَعْملون من خلال الإطار الكونيّ للإرادة الإلهيَّة لكون أعمالهم جزءًا من حركة الخلاص الإلهيّ. وعنده أنَّ هؤلاء الأشخاص يُمْكن أن يُسْهموا في ظهور المسيح، حتى ولو لم يكونوا يؤمنون به.

وهكذا يَمْضي كوك في هذا التزييف، على الرُّغم من أنَّه يَرْبط بينه وبين بعض أفكار هيجل حول «حِيَل العقل،» كي يَخْلص إلى أنَّ معارضةَ القوميَّة الصهيونيَّة والحطَّ من قيمها أمران غير جائزَيْن لأنَّ روح اللَّه وروحَ إسرائيل (يعني القوميَّة الصهيونيَّة) شيء واحد. وجملة القول عنده أنَّ

١ ـ الجزء الأول من الطبعة الإنكليزيَّة، ص ٢٧٠.

أصبح الدين على يد الصهيونيَّة وممثّليها ـ أمثال هرتزل وجابوتنسكي ـ مجرَّد أداة للحركة القوميَّة

الصهيونيَّة العلمانيَّة اللادينيَّة هي جزءٌ لا يتجزَّأ من الديانة اليهوديَّة (وإنْ جهلتْ ذلك)؛ كما أنَّ أرض إسرائيل تعبِّر عن المعنى الكونيّ المركزيّ للوجود اليهوديّ: وأنَّ الخلاص اليهوديّ جزء من عمليَّة عالميَّة شاملة؛ وأنَّ العالم كلّه يعاني ما يعاني من الفوضى لأنَّ الشعب اليهوديّ لا يَشْغل المكانَ الذي منحته إيّاه البُنْيةُ الغائيَّةُ للكون.

ج ـ الصهيونيَّة المفتعلة. أشدُّ ما يَفْضح ما في الصهيونيَّة من افتعال أنَّ الدعوة إليها جاءت في غير أوانها، أيْ بعد أن زالت المبرِّراتُ المتّصلةُ بالمشاعر اللاساميَّة ضدّ اليهود في أوروبا وسواها. ومن هنا حقَّ للكثير من الباحثين ـ ومنهم يهود ـ أن يقولوا إنَّ الصهيونيَّة بُنيتْ من خلال مفارقة عجيبة: فالحركة الصهيونيَّة التي تَهْدف إلى عودة اليهود إلى فلسطين لم تَظْهر قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكانت أوروبا قبل ذلك قد شهدتْ بعد الثورة الفرنسيَّة بشكل خاصّ (عام ١٧٨٩) حركةَ تحرُّرٍ أدّت إلى معاملة اليهود فيها على قدم المساواة مع سائر المواطنين. وإذا نحن قارنّا بوجهٍ خاصّ بدايةَ القرن التاسع عشر مع بداية القرن العشرين وجدنا أنَّ حياة اليهود لم تَشْهد من قَبْلُ مثلَ ما شهدتْه هذه الفترةُ من انطلاقة إيجابيَّة في ميدان الاقتصاد أو السياسة أو الفكر. ومنذ ذلك الحين أصبح اليهود يسكنون المدنَ والعواصمَ الكبرى في أوروبا، بل أصبحوا إلى حدٍّ كبيرٍ سادتَها وأصحابَ الحظوة فيها. ومن هنا يسأل المرء: ما الذي دفع إلى ولادة الصهيونيَّة في هذه الفترة بالذات؟

لا شكَّ أنَّ تحليل هذه المفارقة يحتاج إلى صفحات. وأهمُّ ما في هذا التحليل هو أنَّ اليهود أنفسَهم، وقد فُتحتْ لهم أبوابُ الاندماج الكامل بالقوميَّات الوطنيَّة التي كانت سائدةً في أوروبا، ظلّوا يشعرون أنَّهم لا ينتمون إليها حقّاً، وأنَّ عليهم أن تكون لهم قوميَّتُهم الخاصَّة. وهكذا نستطيع أن نقول إنَّ حركة التحرير والتنوير في أوروبا ولّدتْ لدى اليهود في تلك الفترة البذورَ الأولى لوعيٍ جديدٍ لا يصحّ أن نعتبره دينيّاً، وإنَّما هو وعيٌ مقابلٌ لصعود القوميَّات الحديثة العلمانيَّة في أوروبا. من هنا نستخلص أنَّ الصهيونيَّة تمثِّل ظاهرةً أعقبتْ حركةَ التحرير في أوروبا، وأنَّها ـ حين أكّدتْ على الصلة التاريخيَّة بينها وبين بلد الأجداد في إسرائيل ـ حوّلتْ مشاعرَ اليهود التي ظلتْ نائمةً طوال قرون إلى طاقة محرِّكة، وجعلتْ من القوميَّة اليهوديَّة انعكاسًا للأفكار التي ولّدتها الثورةُ الفرنسيَّةُ والحداثةُ والنزعةُ القوميَّة.

ويعنينا من هذا كلّه أن ندرك كيف كانت الصهيونيَّة حركةً مفتعلةً تسير في عكس اتّجاه التطوُّر الذي حدث في العصر ـ ولاسيَّما بعد الثورة الفرنسيَّة، وبوجه خاصّ بعد ناپليون وقوانينه الجديدة التي مَنَحَ فيها اليهودَ امتيازاتٍ خاصَّة. وهو تطوُّرٌ فَتَحَ البابَ واسعًا أمام اليهود للحياة حياةً كريمةً في المجتمعات الغربيَّة التي كانوا فيها. وهذا شاهد آخر على ما في الصهيونيَّة من عنصريَّة تجعلها عاجزةً عن التعايش مع سواها، بل تجعلها تَبْحث عن السيطرة على سواها وعلى العالم.

ولا حاجة إلى القول إنَّ ما آل إليه وضعُ اليهود بعد خلق دولة إسرائيل يبيِّن أنَّ الصهيونيَّة ـ نتيجةً لحلمها هذا ـ جعلت الشعبَ اليهوديَّ اليوم في مأزق، سواء في داخل إسرائيل أو خارجها، وأنَّ حلمها لم يتحقَّق ولن يتحقَّق، وحلَّت محلَّه الكوابيسُ المنغِّصةُ لحياة اليهود أنّى كانوا.

٣ ـ القوميَّة الصهيونيَّة قوميَّة عنصريَّة إثنيَّة متعالية. وهذا ما نجده واضحًا في الأدب الصهيونيّ منذ تباشيره الأولى. وقد رافق هذا الشعورُ الحركةَ الصهيونيَّةَ في شتّى مراحلها ومايزال ذائعًا حتى اليوم. وحسبُنا أن نشير إلى أفكار زعيمَيْن صهيونيَّيْن شهيريْن: أوَّلهما هو جابوتنسكي وثانيهم أوري تزيفي غرينبرغ (١٨٩٧ ـ ١٩٨١)، الذي أقام في فلسطين منذ عام ١٩٢٤، وأسْهم في صحيفة **داڤار** التي تمثِّل اتّحادَ الهستدروت العمّاليّ.

أمّا جابوتنسكي، رأسُ الفريق الصهيونيّ اليمينيّ المتطرّف وأكبرُ الدعاة إلى اللُّجوء إلى القـوّة من أجل توليـد الكيـان الصهيونيّ، فقد وضع نظريّةً متكاملةً حول دور العِرْق في تاريخ الإنسانيّة. وصَدَرَ له أولُ تحليلٍ مفصّلٍ في هذا المجال في مقالٍ كتبه عام ١٩١٣، عنوانُه «حول العِرْق.» وفيه يقول إنّه ليس من المهمّ أن يوجد عِرْقٌ صافٍ أو ألا يوجد، والأهمّ هو الفرق القائم بين مختلف الجماعات الإثنيّة التي يميّزها نَسَبُها العرقيُّ. وبهذا المعنى وحده يغدو مفهومُ الأمّة ومفهومُ العِرْق متكاملَيْن. وهكذا يريد جابوتنسكي في مقاله هذا أن يضع مكانَ الحتميّة الماركسيّة حتميّةً يحدّدها العِرْق. ويستخلص من ذلك أنّ جوهرَ الأمّة ومقوِّمَ وحدتها يَكْمنان في الصفات الجسديّة المميِّزة لها، وفي العناصر المقوِّمة لتكوينها العِرْقيّ. وهذا يؤدّي به الى القول بتفوُّق الأمّة اليهوديّة على سواها من الأمم.

أمّا الشاعر الروسيّ غرينبرغ فقد كان يَنْظم القصائدَ الملتهبة ضدّ الآخر، كاتّهام المسيحيّين بمعاداة الساميّة، واتّهام العرب بتعطُّشهم للحقد، ولتّهام اليسار الصهيونيّ نفسه بالاضطرابِ الخلقيّ، والنساءِ بالغرور. أمّا جوهر الانتساب إلى اليهود عنده فتحدّده صفتان: الدم والأرض. والوحدة البيولوجيّة الكاملة والثابتة لدى الشعب اليهوديّ تقيم بينه وبين الشعوب غير اليهوديّة اختلافًا وفارقًا مطلقًا. ومن هنا فالحوار مع غير اليهود هو قعقعة السلاح، وعن طريق الدم ـ كما يقول ـ سوف يكون البعث. واليهود سوف يحقّقون وجودهم في أرض إسرائيل باللجوء إلى حرب لا تبقي ولا تَذَر ضدّ أولئك الذين يقفون في وجه تحقيق مشروعهم. ويبكي شاعرُنا بكاءً مرّاً على ما أصاب القدسَ، مدينةَ داوود التي هجرها الأنبياءُ، والتي ملأها أبناءُ العمومة العربُ بنهيق الحمير، ودنّسوها بروثْ الأغنام والبشر. ويدعو في خاتمة المطاف إلى تحرير إسرائيل بحدّ السيف، وإلى بناء ملكوت إسرائيل بالقوّة، وإلى إقامة دكتاتوريّة إيديولوجيّة مهمّتُها تحقيقُ الرؤية المسيحانيّة لملكوت إسرائيل.

٤ ـ القوميّة الصهيونيّة قوميّة عدوانيّة. ولسنا في حاجة إلى البراهين: فنحن نعيش مأساةَ هذا العنف الإسرائيليّ اليوم، كما عشناه منذ نشأة الصهيونيّة. ونمضي توّاً إلى أفكار جابوتنسكي (١٨٨٠ ــ ١٩٤٠) الذي كان له ومايزال الدورُ الأولُ في مجرى الحياة السياسيّة قبل ولادة إسرائيل وبعدها، وقبل طرح مشروع السلام مع العرب وبعده. وقد هزئَ منذ البداية بمبادئ الحرية والعدالة، بل تهكّمَ على ما ورد في بعض المواضع في التوراة نفسها من دعوةٍ إلى عدم اضطهاد الآخرين. ومن أقواله في معاداة الإنسان والإنسانيّة: «لا تأمنَنّ لأحد، وكنْ دوماً فطنًا حذرًا وسيِّئَ الظنّ. واحملْ دومًا عصاك معك. وبذلك فقط تستطيع أن تعيش في قلب هذه الحرب التي لا هوادة فيها، حربِ الإنسان للإنسان أنّى كان.»

وليس المجال مجال الحديث عن دوره العمليّ في الحركة الصهيونيّة، وفي تكوين حزبه المتطرّف، وفي تكوينه للفرقة اليهوديّة في فلسطين أيّامَ الانتداب البريطانيّ، ثم لحركة إرغون الإرهابيّة. وإنّما نمضي إلى أفكاره العدوانيّة المؤمنة بالقوّة، التي نكاد نجدها مجتمعةً في مقالَيْن هاميْن له نشرهما عام ١٩٢٣ وعنوانُ أولهما: «الجدار الحديديّ والعرب.» في هذا المقال ينتهي به تحليلُه لموقف العرب إلى إصدار حكم قاطع يقول فيه: «الاتفاق الطوعيّ بيننا وبين عرب فلسطين أمرٌ لا يمكن أن نتصوّره اليومَ أو في المستقبل المنظور.» فكما بيّن معظمُ الصهيونيِّين، ليس هنالك ولو حظٌّ يسيرٌ للحصول على موافقة العرب الفلسطينيِّين على قلب فلسطين إلى دولةٍ أكثريّتُها من اليهود. وبعد أن يَشْرح المنطقَ الذي يدفع العرب الفلسطينيِّين إلى كراهية الصهيونيّة، يحدّد الموقفَ السياسيّ الذي يَفْرضه هذا المنطق، وخلاصتُه أنّه ليس ثمّة إلاّ أحدُ أمرين: أن نوقف حركةَ الاستيطان، أو أن نستمرّ فيها دون أن نأبه لمزاج أهل

البلاد. وليس أمامنا إذن إلاّ أن نتابع حركة الاستيطان عن طريق القوّة، وأن نقيم بيننا وبين أهل البلاد «جدارًا حديديًا» لا يستطيعون أن يهدموه. وعندما انتقد بعضُ مَنْ يسمّون المعتدلين من الصهاينة موقفَه هذا لأسباب إنسانيّة وأخلاقيّة، كتب مقالاً آخر عنوانُه «الأخلاق والجدار الحديدي،» وخلاصتُه أنّ ثمّة أمريْن ممكنيْن: أحدهما أن تكون الصهيونيّةُ ظاهرةً إيجابيّةً، والثاني أن تكون ظاهرةً سلبيّةً. والجواب على هذا السؤال كان يَنْبغي أن يتمّ **قبل** ولادة الصهيونيّة. أما وقد وُلدت الصهيونيّة وأقرّ دعاتُها كلُّهم بأنّها ظاهرة إيجابيّة وحركةٌ خلقيّةٌ وإنسانيّة، فلم يعد ثمّة مجال لطرح هذا السؤال، بل علينا الآن أن نقول: «ما دامت القضيّة عادلة، فلا بدّ أن تَنْتصر العدالة، سواء وافق الآخرون على ذلك أو لم يوافقوا. فالحقيقة المقدّسة التي يَسْتلزم تحقيقُها استخدامَ القوّة تظلّ حقيقة مقدّسة.»

أصبح «الجدارُ الحديديُّ» توراةَ الحركة الصهيونيّة التي سُميتْ باسم «الصهيونيّة التصحيحيّة،» وتوراةَ متطرّفي الصهاينة من اليمين وسواه، وعلى رأسهم اليوم شارون. وقد حاول جابوتنسكي أمام الرأي العالميّ، كما يحاول شارون اليوم، أن يزيّف الحقائقَ وأن يقول إنّ الجدار الحديديّ ليس غايةً في حدّ ذاته بل وسيلة لكسر مقاومة العرب لمسيرة الحركة الصهيونيّة، وإنّه عندما تتحطّم هذه المقاومة فمن الممكن أن تأتي قيادة فلسطينيّة معتدلة، وعند ذلك فقط يمكن أن تبدأ المفاوضات الجادة مع الفلسطينيّين ـ وهي مفاوضات يقدّم الإسرائيليُّون خلالها للفلسطينيّين حقوقًا مدنيّةً وقوميّةً. ولم يحدِّد جابوتنسكي في هذا المقال ما يَقْصده بعبارة «الحقوق الفلسطينيّة،» ولكنّه بيّن في كتابات أخرى أنّه يقصد بذلك مَنْحَ الفلسطينيّين بعضَ الاستقلال السياسيّ داخل دولة يهوديّة.

ومن الجدير بالذكر أنّ ناتانياهو قد تأثّر بمقالة جابوتنسكي وجداره الحديديّ تأثُّرًا كبيرًا. وكتابه **مكان تحت الشمس** فيه أوجهُ شبهٍ كثيرة مع أفكار ذلك الزعيم ـ الذي هو من أتباعه بل من أقربائه ـ لاسيَّما فيما يتّصل بالموقف من العرب. وهكذا نجد في كتاب ناتانياهو هذا «تأكيدًا على أنّ فرص السلام مع العرب تشتدّ وتقوى كلّما بدت إسرائيلُ أقوى.» كما نقرأ فيه أنّ «السلام الحقّ والباقي هو السلام المبنيّ على الردع الإسرائيليّ.»[1]

III ـ خاتمة

استطاعت القوميّة الصهيونيّة أن تحقّق بعضَ أهدافها، على الرُّغم من هذه العلل والعورات جميعها، بل بفضل هذه العلل والعورات. فلقد لجأتْ وماتزال إلى تزييف الحقائق أمام العالم، ولم توفِّرْ أيّ أسلوب من أساليب الكذب والضغط والعدوان من أجل إنفاذ مآربها. وقد يَسَّرَ لها مهمَّتَها هذه إدراكُها الواضحُ منذ البداية أنّ كسب تأييد الدول الكبرى بشتى الوسائل هو السبيل الجَدَد لبلوغ ما تريد، ولو بدا ما تريده أمرًا معجزًا في البداية. ومع ذلك هيهات أن تكون قادرةً على الوصول إلى نهاية الدرب. وممّا يجعلنا نستبشر ببداية نهاية الصهيونيّة حقيقتان: **أولاهما** أنّ ما تمّ من لجوء الصهيونيّة إلى الكذب والخداع والترغيب والترهيب بدأ يتكشّف جليّاً أمام الرأي العامّ العالميّ، وسوف يتبدّى أوضحَ فأوضحَ بسبب وسائل الإعلام والاتّصال الحديثة بوجه خاص. ولا أدَلَّ على ذلك من أنّ كثيرًا من يهود العالم ـ ولاسيَّما في الشتات ـ أخذوا ينفضّون عن الصهيونيّة وآفاتها ومجانبتها للمبادئ الخلقيّة والإنسانيّة. فعلى سبيل المثال نشر جاك أتالي، الكاتبُ الفرنسيُّ اليهوديُّ الشهير والمستشارُ السابق للرئيس ميتران، على

١ ـ بنيامين نتانياهو، **مكان تحت الشمس**، ترجمة محمد عودة الدويري (عمان: دار الجيل للنشر، ١٩٩٥).

أثر أحداث القدس بعد زيارة شارون، مقالاً أثار ضجّة كبرى عنوانُه: «إلى أين تمضي إسرائيل؟» وممّا جاء في مطلعه: «لم تكن إسرائيل معزولةً كما هي اليوم. ولم تكن يومًا مهدَّدةً بالزوال كما هي اليوم.» وفيه يقول: «وفي الجملة، إنَّ إسرائيل مهدَّدةٌ بالزوال عن طريق الحرب، ومهدَّدةٌ بالزوال عن طريق السِّلْم، أو عن طريق هجرة النخبة منها خوفاً من الحرب والسلم.»(١)

أمَّا الحقيقة **الثانية** التي تبشِّر بنهاية الصهيونيَّة فواضحة في بنية المجتمع الإسرائيليّ المتداعية الى حدٍّ كبير. فالصراعات في إسرائيل قائمة على قدم وساق بين العرب والإسرائيليِّين، وبين المتديِّنين والعلمانيِّين، وبين الإشكنازيم والسوفارديم، وبين الصبرا وغيرهم، وبين الفلاشا وسواهم، وبين اليهود الروس ومَنْ عداهم، وبين الأحزاب الدينيَّة المتنافرة، وسوى ذلك كثير. وقد كَشَفت انتخاباتُ الكنيست الخامسة عشرة في ١٧ أيار ١٩٩٩ بوجه خاص عن تفتُّت المجتمع الإسرائيليّ، الذي بدا خلال تلك الانتخابات مجموعةً من القبائل تبحث كلُّ قبيلة منها عن مصالحها الخاصة غيرَ آبهةٍ بسواها. وقد بدا هذا التشتُّت واضحًا حين حاول باراك جاهدًا أن يؤلِّف وزارتَه، ولم يصلْ إلى ذلك إلاَّ بشقّ الأنفس، ومن خلال صيغة تشلّ الحياةَ السياسيَّة. وهذا التشتُّت الذي وصلتْ إليه هويَّةُ إسرائيل، وهذا الدركُ الذي انحدرتْ إليه اللُّعبةُ البرلمانيَّةُ فيها، لا يمكن أن يُفسَّرا إلاَّ بكونهما نتيجةً من نتائج فشل الإيديولوجيا الصهيونيَّة بعد أربعة أجيال وستّ حروب مع العرب، ويعبِّران عن عجز اللُّغة العبريَّة وأساطيرِ التوراة والخروج والسبي والاضطهادِ المسيحيّ الأوروبيّ والغيتو والمحرقة. ويَشْهد على هذا العجز بوضوح سقوطُ باراك نفسه، ونتائجُ الانتخابات الأخيرة التي كشفتْ عن ذعر سكّان إسرائيل أمام زخم الانتفاضة الفلسطينيَّة ـ وهو ذعرٌ حملهم على أن يعودوا إلى أقسى أشكال سياسة العنف، على الرُّغم ممّا جرّته عليهم من ويلات.

وإلى جانب التمزُّق الإسرائيليّ الذي يعبّر عن فشل المشروع الصهيونيّ، ثمّة بعضُ الظواهر الفكريَّة الجديدة التي تدلّ على أنَّ الفكرة الصهيونيَّة تواجه اليوم مواقفَ جديدةً تدعو إلى إعادة النظر فيها بل إلى النكوص عنها. وهذا ما نجده لدى أصحاب التيّار الذي يُعرف بتيّار «ما بعد الصهيونيَّة،» والذي يرى ناتانياهو أنَّه أشدّ خطرًا على إسرائيل من إسرائيل نفسها. وهذا ما نجده على نحو أوضح لدى «المؤرّخين اليهود الجدد» من أمثال إيلان پابي وبني موريس وسِمْحا فلاپان وآڤي شلايم. وقد ذاع صيتُ هؤلاء المؤرّخين منذ منتصف الثمانينيَّات، بعد أن اطَّلعوا على وثائق وزارة الخارجيَّة ووزارة الدفاع في إسرائيل، التي تمّ الكشفُ عنها بعد ثلاثين عامًا من ولادة دولة إسرائيل. ولقد بيَّن هؤلاء المؤرّخون بوجه خاص أنَّ الفلسطينيِّين لم يَهْجروا فلسطين طوعًا عام ١٩٤٨، كما تقول المصادرُ الإسرائيليَّةُ الرسميَّةُ، بل طُردوا منها أبشعَ طردة، وتعرَّضوا أثناء ذلك لمذابح مذهلة مقصودة (في دير ياسين وسواها) من أجل إكراههم على ترك ديارهم. وقد لقيتْ أفكارُ المؤرّخين الجدد صدى واسعًا في إسرائيل، كما لقيتْ تجاوبًا كبيرًا في الأوساط العالميَّة. وليس المجال مجال الحديث عن هؤلاء المؤرّخين، وجلُّ قصدِنا أن نشير إلى أنَّ صورة إسرائيل الصهيونيَّة بدأتْ تهتزّ أمام أعين أبنائها وأمام أعين العالم، وأنَّها مُقْبلة لا محالة ـ بحكم بنيتها الزائفة المصطنعة ـ على مشكلات داخليَّة وخارجيَّة جمّة تضع الصهيونيَّةَ نفسَها ومنطلقاتِها موضعَ التساؤل.

ويلخِّص محمد حسنين هيكل أزمةَ إسرائيل اليوم وبالأمس ووصولها إلى طريق مسدود بسبب الصهيونيَّة، فيقول:

١ ـ مجلة **الاكسپرس**، عدد ١٢ ـ ١٨ أكتوبر ٢٠٠٠.

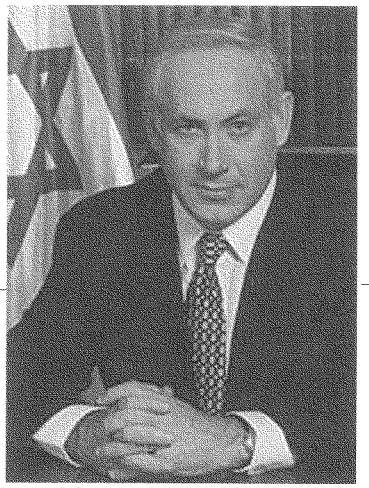

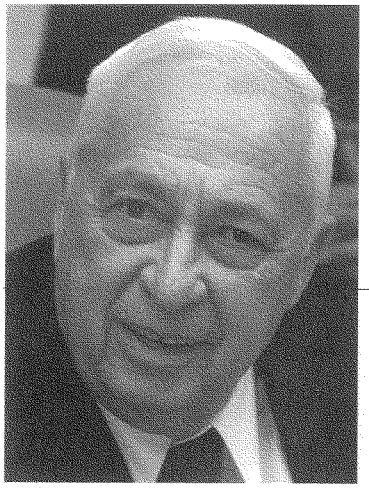

تكشف مفاوضات السلام كلّما تقدّم الزمن عن عودة مطرّدة إلى منطلقات اليمين الصهيونيّ كما يمثّلها نتانياهو وشارون

«أزمةُ المشروع اليهوديّ أنّه حاول اختراعَ ذاكرةٍ من الأوهام يؤسِّس عليها مشروعَ دولة أو مشروعَ إمبراطوريّةٍ مستحيلةِ التحقيق وإنْ كانت باهظةَ التكاليف بسبب المحاولة.»[1]

ولكنْ حذار أن تَدْفعنا هذه الصورةُ المهتزّةُ للكيان الإسرائيليّ إلى الاطمئنان إلى المستقبل. فجلُّ هدفنا من وراء الإشارة إلى بعض معالم العجز الإسرائيليّ والقصور الصهيونيّ أن نبيِّن أنّ أمام العرب فرصةً نادرةً لتضييق الخناق على إسرائيل وفضح أهدافها الصهيونيّة التليدة والجديدة. وما ينبغي أن نعيَه هو أنّ إسرائيل تستطيع أن تبقى مهما تكاثرتْ أزماتُها الداخليّة، وأنّ ثمّة بلدانًا كثيرة في العالم استمرّت في البقاء على الرُّغم من مشكلاتها الداخليّة العميقة مادامت لم تتعرّض لخطر خارجيّ. ولا ييسِّر انفجارَ إسرائيل من داخلها إلاّ توافرُ قوّةٍ خارجيّةٍ معاديةٍ. ولا شكّ أنّ تصميم الأمّة العربيّة، ومعها الأمّة الإسلاميّة، على تطويق إسرائيل والتضييقِ عليها ومنعِها من أن تَخْرج من زنزانتها إلى رحاب الوطن العربيّ الفسيح يأتي على رأس العوامل التي تعجِّل في تداعيها وانهيارها. بل إنّ جيش إسرائيل الذي هو درعُها ورمزُ بقائها لن يستطيع أن يقوم بمهمّته في حماية إسرائيل من جيرانها، وسوف يَفْقد بريقَه وشأنه يومًا بعد يوم في أعين الإسرائيليّين أنفسهم، لاسيّما عندما يَنْقلب إلى جيش حقير يرابط في المدن العربيّة المحتلّة، ويَسْهر على منع التجوُّل في مناطق السلطة وفي المستوطنات، ويلاحق أطفالَ الحجارة، ويَقْتل الأبرياءَ من الكبار والصغار والأطفال الرضّع. وها نحن نرى الكثير من الجنود الإسرائيليّين يَرْفضون الالتحاقَ بوحداتهم العسكريّة أثناء الانتفاضة الأخيرة، كما رفض أترابٌ عديدون لهم من قَبْلُ الخدمةَ في صفوف الجيش الإسرائيليّ أيامَ معركة لبنان.

وجملة القول إنّ إسرائيل، التي تملك القوّةَ العسكريّةَ وسواها، لا تَمْلك القوّةَ المعنويّة والبواعثَ الإيديولوجيّة التي تشدّ أزْرَ تلك القوّة. وما دامت حربُها مع الفلسطينيّين والعرب حربَ المغتصِب المعتدي، فلن تستطيع أن تفلّ العزيمةَ العربيّةَ، وسوف يظلّ جيشُها المدجّج بأحدث الأسلحة مضطربًا قلقًا. والأمّةُ العربيّة، وإلى جانبها الأمّةُ الإسلاميّةُ، تَمْلك الإمكانات البشريّةَ والماديّةَ والجغرافيّةَ الهائلة. وإذا هي استطاعت أن تَجْمع أمرها، وأن تَعْزم على أن تمارسَ بشتى الوسائل حقَّها في استرداد ما اغتُصِبَ منها، فسوف تكون المنتصرةَ لا محالة، طال الزمنُ أو قصر.

وبعد، فإنّ نظام الأپارتايد العنصريّ لن يدوم طويلاً، إلاّ إذا وافق العربُ على بقائه على حساب ووجودهم ووحدتهم القوميّة ومستقبلهم. ومن هنا يَنْبغي أن يكون مفتاحَ الموقف العربيّ اليوم تركُ الباب مفتوحًا وعدمُ إغلاق «الملفّ» مهما تكن التسوياتُ الموقّتة. فالأيام حبلى بالأحداث، وإرادةُ الشعوب لا بدّ أن تَنْتصر في عالمنا على الرُّغم ممّا يتخبَّط فيه اليومَ من بحران وفوضى وابتعاد عن القيم الخلقيّة والإنسانيّة.

ومعركة العرب ضدّ الصهيونيّة لها، بالإضافة الى أهدافها القوميّة، أهدافٌ إنسانيّةٌ وخلقيّةٌ طالما أوقدتْ شعلتَها الحضارةُ العربيّةُ الإسلاميّةُ في شتى مراحل تاريخها. ومن هنا فمقارعةُ الصهيونيّة مقارعةٌ للشرّ في هذا العصر الذي كان يُطْلَقُ عليه اسمُ العصر الصهيونيّ. أَوَلَيست مثلُ هذه المهمّة الكبرى جديرةً بأن يعبَّأَ لها الوجودُ العربيُّ كلُّه؟ ونَخْتم كلمتنا بقول الشاعر القرويّ: «أمّا السلامُ فإنّنا أعداؤه/حتى يَدينَ بحبِّه أقوانا.» ونذكّر بالبيت الذي تحدّث فيه عن الاستعمار الفرنسيّ آنذاك: «أتيناهم بإنجيل المسيح / فجاءونا بآياتِ الفتوح!»

باريس

١ ـ جريدة **السفير**، ١ آذار (مارس) ٢٠٠١.